كيف حاولت أن أكون خطيباً

للأســـتاذ زهدى الشواف

إنها محاولة لا أذكرها الآن إلا ضحكت من نفسى ... فلقد كانت نزوة من نزوات الشباب الطائش ، وهفوة من هفوات العاطفة الجموح ... وما أكثر ما تخطىء العاطفة ، وما أكثر ما تزل بالمرء فى مزالق السخف ! .. ولو قُدر لنا أن نتحرر من ربقتها لبرئنا من الضحك من أنفسنا ، ولترفعنا عن كثير من المهازل التى تتمثل على مسرح الحياة .

لقد عينتنى وزارة المعارف معلماً فى مدرسة ابتدائية فبادرت للعمل فرحاً ، ولم أكد أدخل الصف حتى ألفيت نفسى بين حشد من الأطفال لا يحصيهم عد ... لقد كانوا لحداثة عهدهم بالمدرسة أشبه بالهارة الناشزة التى لم تروض على الركوب ، وكانوا مزيجاً غريباً من طبقات اجتماعية مختلفة ، متفاوتين فهما وخلقاً وإدراكا

وما إن رأونى مقبلا عليهم حتى سكتوا لحظة ، ثم راحوا يتطاولون بأعناقهم فينظرون إلى . وبعد هنيهة عادوا إلى حديثهم وعكفوا على لهوهم ، كأنى لم أحل بينهم أو كأنهم فى ساحة البلد لا تجمعهم مدرسة ولا يهيمن عليهم نظام . ولقد فكرت فى العصا ولكن التعاليم التربوية الحديثة تقول « إن الضرب ممنوع فى المدارس ... » نعم إن الضرب ممنوع لأنه ينافى التعاليم التربوية ولكن حشر مائة طالب فى غرفة واحدة لا ينافيها ! . هذا هو فهمنا للتعاليم ! .. وهذا هو مدى تطبيقنا إياها ! ...

وقد حاولت تأمين النظام بكل ما أوتيت من حكمة ولكن جهودى كلها ذهبت عبثاً . وأنى لى أن أفلح والطلاب منصرفون عنى . فهم بين جالس على مقعد ، ومطجع على حصير ، وواقف خلف « درف » الشباك ... إن المقاعد لم تكن لتسعهم كلهم ... فما ذنبهم ؟.. وما ذنبى ؟...

لقد أتيت المدرسة مزوداً بالتعاليم الحديثة مشبعاً بالأفكار المثالية ولكن ما أسرع ما وجدت أن تلك التعاليم ظل لا حقيقة له ، وأن هذه الأفكار بعيدة عن متناول اليد بعد السماء عن الأرض .

وانتصفت الساعة الأولى وأنا حائر فى أمرى لا أجد مخرجاً لى مما أنا فيه . فلما يئست من إصلاحهم وكنت للحيلة ، وذكرت أنى كنت رأيت قبيل مجيئى للمدرسة أناساً التفوا حول خطيب يتكلم بصوت جهورى ، وذكرت أنهم كانوا يصغون إليه هادئين صامتين فأحببت أن أقلد هذا الخطيب لعلى أظفر بهدوء الطلاب وصمتهم . فصعدت المنبر وانطلقت أتكلم بصوت جهورى : « أيها الطلاب ! ... » ولم أكد أنبس بأول كلمة حتى صمتوا وتوجهوا إلى بأنظارهم وأفكارهم ... يالله المعجزة ! ... لقد نجحت طريقتى على ما فيها من سخف !.. لقد عرفت لأول مرة أن النجاح فى الحياة قد يقوم على السخف والتدجيل أكثر من أن يقوم على العبقرية ... لقد توارت التعاليم التربوية أمام التعاليم السوقية ، وتلاشت الأفكار المثالية أمام الأفكار الصحفية ، واصطنع السخف ما لم يستطع العقل له صنعاً .

وراحت الكلمات تنبعث من فمى كالرعد والأطفال صامتون . وما أدرى أصمتوا متأثرين ببلاغتى ، أم سكتوا دهشين لرؤيتى أتكلم بكلام مستغلق لا معنى له . ومهما يكن فى الأمر من شىء فقد أغرانى هدوءهم فاسترسلت فى الخطابة حتى نسيت أنى فى الصف وتملكنى الحماس فرحت أقرع الطاولة بيدى ... ويبدو أن صدى صوتى قد ملأ أرجاء المدرسة فبادر المعلمون لاستطلاع الخبر ولكنهم لم يجسروا على فتح الباب وإنما ليثنوا خلفه يسترقون السمع

ولقد أنصتوا وأنصتوا ولكنهم لم يفهموا شيئاً . وأنى لهم أن يفهموا كلاماً مزج الأدب بالتربية ، وخلط العلم بالفن ، فأصبح لا تربط بين أجزائه رابطة ، ولا تقوم بين عناصره علاقة ... إنى لم أترك كلمة أحفظها « لوليم جيمس » إلا أتيت عليها . ولم أدع بيتاً أرويه للمتنبى إلا ذكرته . ولقد كان لقوانين الكيمياء والفيزياء النصيب الأوفى من محاضرتى فإنى كنت لا أزال حديث

الأحداث أسرع من لمحات البرق فى السحاب المتراكب ، فليبادر إلى الخير مبادرة من عرف وجه الحق فلم يحجم به عن الجهاد خوف ولا فزع ولا إرهاب . إن عمل الحاخام الأكبر هو « الحد الفاصل » الذى ينتظره اليوم أربعمائة مليون مسلم قد استيقظوا وأدركوا أن يهود العالم قد أعلنوا عليهم الحرب ، فلن يخدعهم بعد اليوم شىء عن الطريق الذى سار فيه آباؤهم من قبل ، فنصرهم الله وأيدهم وهزم أعداءهم وأعلى كلمتهم وجعلهم خير أمة أخرجت للناس .

محمود محمد شاكر

المهد بها أحفظها عن ظهر قلب ...

وبينا أنا عاكف على إغراق طلابي في بحار العلم والحكمة ، رفع أحدهم أصبعه فما كان مني إلا أن صحت به : « مالك ؟ » فقال بأصبعه وبعينه نحو الباب ... فالتفت ... ويا لهول ما رأيت ... ويا للخجل !.. إنهم المعلمون .

وماتت الكلمات على شفتي فجأة ... لقد صحوت من النشوة التي كانت تعتادني . ونزلت من عالم الوهم إلى عالم الحقيقة المرة ... يا إلهي أين كنت ؟ ...

وبادرني أحد الزملاء قائلا : « لقد انتهى الدرس » فأمرت الطلاب بالخروج من الصف ثم انضممت إلى المعلمين ولم أترك لهم مجال النقد وإنما وحت أوهمهم بأن ما قمت به إن هو إلا تطبيق لقاعدة تربوية مشهورة ابتدعها المربي الكبير « أوغست كونت » وما سمع زملائي الأكارم بهذا الاسم حتى شرعوا يثنون على ويطرون طريقته هذه ... وإني أعترف الآن أن الحظ ساعفني في تلك اللحظة فاستطعت أن أخرج من هذا المأزق الحرج ناصع الجبين ، محاطاً بهالة من إعجاب الزملاء والطلاب ... ولكني خرجت من المدرسة ولم أعد إليها ، وما زال معلموها — أحسن الله إليهم — يذكرون اسمي مقرونا بالثناء العطر ، وما زال طلابها — وقد أصبحوا شباباً — يرون أني المثال الذي يقتدى به علماً وأدباً

لقد خرجت من المدرسة ولم أعد إليها . ورمت بي الأيام مراسي شتى فنفرت من طبيعة عملي ولكنها لم تستطع أن تتطرق إلى فكرة بقيت كامنة في قرارة نفسي ، تلك الفكرة هي : « أني خلقت خطيباً ... فيجب أن أكون خطيباً ... »

ومرت أيام وأيام أصبحت بعدها محامياً فوجدت أن الخطابة أصبحت من لوازم مهنتي ولقيت الفرصة مناسبة « لإظهار مواهبي ثم أدركني ما يدرك كل محام ناشيء في « حماه » ففكرت بأنني قد درست المحاماة لا لأكون محامياً فحسب ، بل لأكون نائباً أدافع عن حقوق الشعب تحت قبة البرلمان .

وكيف لا أطمع في النيابة وقد رأيت جاري « أبا نادر » زعيما يتصدر مجلس الحي ويبحث في قانون روسيا ويناقشه ، ثم يحمل على أمريكا وينتقد دستورها وسياستها . « وأبو نادر » أمي يجهل حتى موقع روسيا على الخارطة ، ولا يعرف عن أمريكا إلا أنها البلد الذي كان يهاجر إليه السوريون لكسب الرزق ... لقد قرنت نفسي « بأبي نادر » فوجدت أني أكثر منه أهلية وكفاية فأخذت أعد للزعامة عدتها فرحت أحترم الكبير وأعطف على الصغير وأحيي كل مار أصادفه في الطريق ، وأغشى كل ندى وأزور كل سامر ... إنها مهمة شاقة ولكنها الوسيلة الوحيدة للزعامة في هذا البلد .

وشمرت بحاجتي للخطابة ، وعاودني الحنين إليها . وما إن خطبت مرة واحدة حتى أصبحت المجالس تشتاق لسماع صوتي . وأضحى القوم يشيرون إليّ بالبنان ويعدونني مجاهداً ... ما أعظم هذا اللقب !.. وما أرخصه في هذا البلد !.. إني — شهد الله — لم أحمل عصاً ولم أرم حجراً ، ولكنه لقب ساقه إليّ القدر كما ساقه لغيري ، فلم لا أفيدُ منه ، ولم لا أنتفع ببركاته . إن خطبة واحدة جعلتني مجاهداً ، فكيف بي لو خطبت كثيراً ... إني سأكون في عداد الزعماء الخالدين ...

إن الكلام رأس مال الزعماء ، فلم لا أكون من أهل الكلام ؟ هذه حقيقة أيقنت بها فأحببت أن أروض نفسي على الخطابة ورحت أفتش عن مكان خال من الناس ، ناء عن المدينة . فلم أجد خيراً من قبة « البرناوي » القائمة على مسافة كيلو متر من شمالي حماه الغربي ، على سفح منحدر ينتهي بطريق ضيقة تؤدي إلى البساتين الناعمة في أحضان « العاصي » .

وهناك كنت أقضي الآصال هانئاً بالوحدة ، ناعماً بمنظر الخضرة والماء . . وكنت أخطب فأطيل ولا أمل ؛ ويتملكني الحماس فأرغي وأزبد ، ولا أجد من يسمع صوتي غير البقرات العائدات من البساتين ، وقد رحن يمشين مشياً وئيداً في الطريق الضيقة في أسفل المنحدر وخلفهن بعض القرويين التعساء ... وكن إذا ما مررن من أمامي بعيداً عني وسمعن صوتي يقفن قليلاً ويلوين بعنقهن نحوي ثم يهززن رءوسهن ويمدن لسيرهن فيخيل إليّ أنهن يقلن لي : « إذا أصبحت نائباً فأرخص لنا الشعير ... » فأجيبهن : « نعم سأرخص لكنّ الشعير أيتها البقرات العزيزات !... »

وقد ملكت الخطابة نفسي فأصبحت وكلامي كله يكاد يكون خطابة .. واتفق أن رجعت ذات مساء إلى البيت ودخلت غرفتي وأغلقت الباب وشرعت أخطب .. وما هي إلا لحظات حتى انفتح الباب ودخلت أمي والدموع تملأ عينيها : « سلم الله عقلك ! .. ماذا أصابك يا بني !.» فلزمت الصمت ولم أحر جواباً .. ولكنها أردفت قائلة : « أتريد أن تكون كجارنا أبي رشيد ...» وخيم الصمت علينا ثم انسحبت من الغرفة وأغلقت وراءها الباب . ولم أكد أخلو إلى نفسي حتى فكرت فيما قالته أمي .. وأصغيت قليلا

فإذا بصوت جارنا « أبي رشيد » يخترق الظلام ويطرق سمعي .

مسكين أبو رشيد !.. لقد مر عليه شهران والأغلال تلازم يديه والقيود تثقل رجليه .. إنهم يقولون إن به مساً من الجنون . إنه لم يؤذ جاراً ولم يضر إنساناً ولكن أبناءه بصروا به يخطب في الشوارع والأسواق فاقتادوه إلى بيته وحبسوه في غرفته ... لقد سمع صوته وهو يقول أن ليس به جنون . ولكن ما من سامع ! واختنق وهو يدعو للأخلاق القويمة .. ولكن ما من يطيع !. وهذا صوته يصل إلى إذني ضئيلا وهو ينادي : « أيها القوم ! الدين لله والوطن للجميع ! . إن بناء الوطن لا يقوم على الطين والأحجار ولكن على المهج والأكباد .. المصلحة العامة رائدنا ونجاح الأمة غايتنا ..»

ما أعذب هذه الكلمات ! . لقد طالما سمعتها تتردد في كل مكان وعلى كل شفة ، يا للعجب : . . هذه الكلمات التي رفعت أناساً إلى مصاف الزعماء والقادة تنحدر بأبي رشيد إلى ظلام غرفته ووحشتها ... ورحت أفكر طويلا في أمر أبي رشيد !.. مسكين أبو رشيد ! .. لقد حكمت عليه الهيئة الاجتماعية بالجنون ولا ذنب له غير الدعوة إلى الأخلاق القويمة .. ومن يعلم ؟ . لعل بين جنبي أبي رشيد نفساً أجدر بالزعامة من كثير من النفوس التي تتبوأ عرش الزعامة ، ولكن الهيئة الاجتماعية حكمت عليه بالجنون فكان مجنوناً . لقد كانت مقاييس الجنون طيبة بحتة ، ولكن المجتمع جعلها اجتماعية بحتة تخلق من الحمق قادة ، وجعل من العقلاء مجانين .

وكان الليل قد انتصف فاضطجعت في فراشي وصورة « أبي رشيد » لا تبارح خيالي ، وصوته لا ينفك يطرق مسمعي ضئيلا ضعيفاً . ونمت وقد عولت على ترك الخطابة .. ونمت وقد شيعت كل آمالي وأحلامي ..

وما أشرقت شمس النهار حتى كنت أنهض من فراشي ... وما مالت الشمس للغروب حتى كنت أدرج إلى « البرناوي » لأنقع غليلي بالخطابة ... لقد سلوت أبا رشيد ، ونسيت العظة البالغة التي جعلها إليّ صوته في الليلة البارحة ... لقد مضت تلك العظة مع الليل وما كان لإنسان أن يتعظ بما فات . .

ووقفت على المنحدر كسابق عهدي أرسل الجمل متتالية ، والكلمات متداخلة حتى شعرت أن الأرض تهتز من وقع كلامي ورأيتُ أن الأشجار تتمايل في أقصى البستان من هول خطابي . ولقد تملكني الحماس فرحت أكثر من الإشارات . ونشأت أضرب الأرض برجلي . وفجأة شعرت بيد قوية تضغط على كتفي والتفت فإذا بجندسين مصوبين إلى رأسي ، وإذا أنا أمام اثنين من رجال الشرطة الأشداء يتقدمان إليّ ويحاولان إلقاء القبض عليّ ولقد سدّت المفاجأة عليّ منافذ التفكير فلم أعد أدري ما أصنع ، وهممت بالابتعاد عن الشرطيين ولكنهما صاحا بصوت واحد ،

— حذار أن تتحرك وإلا قتلناك ! ..

— وعلام ذلك . وما هذه المعاملة الشاذة ! . احترموا الناس أنا محام . . أنا أستاذ . . أنا ..

— محام .. أستاذ .. هذا ما يخيله لك الجنون ! ..

— الجنون . . .

— احرس وإلا قتلناك ! ...

ولما أبصرت الجد في كلامهما ، ورأيت أن من العبث مناقشتهما لزمت الصمت وانقدتُ إليهما فضربا عليّ يديّ بالوثاق ورحنا نحث الخطى إلى مخفر « الحسنين »

ودخلنا المخفر مع الليل ، ولم نتخط العتبة حتى كنا أمام المأمور « القومسير » ولقد كان هذا يعرفني معرفة تامة فلم يكد يراني حتى انتصب واقفاً ونظر إلى رجاله مشدوهاً ، وقلب يديه مستفهماً عن السر في القبض عليّ . فأجابه أحد رجاله :

— إنه يدعي أنه محام ... وأنه أستاذ ...

— من يكون إذاً ؟ ...

— إنه المجنون الذي أرسلتنا بطلبه ، المجنون الذي روّع المارة في سفح البرناوي هذا الصباح بما كان يلقيه عليهم من حجارة

تألم « القومسير » لهذه الكلمات وارتسم الألم على محياه . ثم أسرع إلى الوثاق فحله وراح يستعذر إليّ عن فعل رجاله ، والتفت إليهما يؤنبهما .. وما ينفع الاعتذار !. وما يجدي العاتب !. لقد كان ما كان ، وشدت يداي بالوثاق ، وأخذت كما يؤخذ المجرمون والمجانين ... لقد خرجت من المخفر وأنا لا أعي ما أصنع ... لقد كانت الصدمة أليمة أنستني الخطابة ، وزهدتني في النيابة . ولم يدر أحد بما أصابني فقد كتم رجال الشرطة — على غير عادتهم — الأمر ولقد كانت الطريق التي جزناها من البرناوي إلى المخفر مقفرة من المارة .. وإني لا أزال أحمد الله كثيراً على أن الخبر لم ينتشر وإلا رغب الطامحون عن الخطابة كما رغبت ، وزهد المغرمون بالنيابة كما زهدت ، ولأمست حماه لا تسمع لخطيب صوتاً ولا ترى لنائب وجهاً

حماه (سوريا) زهدي السواف